من خراسان إلى بلاط الدولة العباسية

البرامكة أقصوا العرب من مفاصل الدولة ومَكَّنوا الفرس

يظل البرامكة اســتثناءً في التاريخ العباسي باعتبارهم أســرة فارسية لها تأثيرها العميق في بنية الدولة، إذ إنها مرت بالتسلط على الحكم العباسي ومضت، إلا أن العنوان الأبرز في تجربة البرامكة أنهــم كانوا نتيجة فعل فارســي دؤوب بدأ منذ وقت مبكر، ونشــط في التغلغل منذ ســقوط الدولة الأمويــة، إذ لم تكن دولة بنــي أميَّة مفضلة للفرس الذيــن وجدوا فيها امتدادًا للدولــة العربية التي أســقطت مملكتهم الساســانية، فصاروا يمثلون حركة مناهضة للأمويين، ووجــدوا في ذلك فرصةً للتقرب بها إلى العباسيين، والعمل معهم للإطاحة بالحكم الأموي، ثم اختراق الدولة الجديدة والحكم من خلالها، ومن هنا اســتطاع البرامكة الفرس اختراق منظومة الحكم العباســية، ونشــر الألعيبهم السياســية في القصر، وتعميق الخلافــات بين الولاة وولاة العهد، وتقريب العنصر الفارســي وإبعاد العربي المخلص.

استحوذ البرامكة على السُّلَّم الوحيد للصعود إلى المجد والمال والمناصب والنفوذ، فلم يعد أمام العرب من وســيلة للتطور والتقدم في سلم الدولة العباســية إلا من خلال البرامكة، وتملقهم، والتقرب منهم، والخضوع لسلطتهم.

ولم تكن أعمال البرامكة داخل الدولة العباســية مســتثناة من المناخ الشعوبي الذي سيطر على مفاصل الدولة وثقافتها، بل كانت معظم أعمالهم وممارساتهم تنسجم مع توجهات الشعوبية المضادة للعروبة، بل ترســخ الكراهية، ولعل من أبرز أعمالهم في هذا الجانب إحياء الثقافة الأعجمية، والتغني بالتاريخ والأدب الفارســي، وتشــجيع ترجمة الأعمال الفارســية إلى اللغة العربية، واحتضان المترجمين والكتاب ذوي الميول الشــعوبية من الفرس خاصة، لإعلاء شــأن الحضارة الفارسية، وفي الوقت نفســه العمل للحط من مكانة العرب ودورهم وثقافتهم بتأليف الكتب في ذمهم والســخرية من عاداتهم وتقاليدهم.

وفي ســبيل الترويج احتضن البرامكة الشــعراء من ذوي النزعة الشــعوبية؛ ليقوموا بدور الدعاية لهــم ولثقافتهم بين الناس، كما عملوا جاهدين لزعزعة مفاهيم العقيدة الإســلامية تحت شــعار حرية الرأي، ومجالس الشرب والمؤانســة، وتقريب عناصر متهمة بالزندقة والإلحاد، كذلك القيام بنشــاطات ســرية ذات طابع عرقي من خــلال مجالس لا يدخلها ســوى الفرس، فضلاً عن تفضيل الفرس لاســتلام الوظائف المهمة فــي الدولة، وظهور دعمهم للعقيدة المجوســية، مما جعل أصابع الاتهام توجه إليهم بالزندقة.

بدأ التخطيط البرمكي مبكرًا لاختراق الحكم العباسي، فخالد بــن برمــك أرســى قواعــد العلاقــة مع العباسيين ووطدها بعدما انضم إلى الــدعوة العباسية ضد الدولة الأموية، وبعد إعــلان قيام الدولة العباسية بدأت أسرة البرامكة تضع أولى خطواتها نحو السلطة والنفوذ، إذ برز اسم خالد بن برمك منذ اليوم الأول لبيعة أبي العباس الســفاح بالخلافــة، وقــد نال بدهائه ولباقته الحظوة عنده فَقَلَّــده الوظائف المهمة في الدولة، حتى أُسند إليه منصب الوزارة بعد إزاحة أبي سلمة الخلال.

لا يمكن لحركة سياسية سرية مثل الحركة البرمكية أن تقوم وتزداد ســلطتها ونفوذها بدون ســلطة المال، ولذلك سخَّروا أموال الدولة لخدمة أغراضهم والإنفاق بسخاء على أتباعهم دون مراعاة مصالح الدولة وعامة الناس وحقوقهم، كما عملوا على إضعــاف وحدة الدولــة العباســية بإحداث الخــلاف والشــقاق بيــن أبنــاء الخليفــة خدمة لمصالحهم العرقية.

> لعبوا دور القوي الأمين زورًا، وتسللوا إلى القصور وسيطروا على أبناء الخلفاء

عمل البرامكة جاهدين لإقصاء العرب من قصور الخلفاء، واتهامهــم بالتخاذل في أعمالهم، والتشــكيك في ولائهم عنــد الخليفة ليصفو لهم العبث، وشــمل ذلك كل من يشــكون في خطره عليهم مــن القادة والمفكرين العرب، أي كل من لا يخدم أجندتهم ويشــكل خطرًا علــى مكانتهم في قلب الدولة العباسية.

ومن أبــرز المناوئين للبرامكة محمد بن الليث، الذي اشــتهر بعدم ميله للعجم والفرس، لذا كرهه البرامكة وتآمروا عليه، فضلا عن ســعيهم لدى هارون الرشــيد للإيقاع بالقائد العسكري يزيــد بن مزيد الشــيباني صاحب الإنجازات الكبرى، الذي علا صيته في الدولة العباســية بســبب شــجاعته وإنجازاته، واتهموه بالتراخي في قتال الخوارج.

ولم تكن خطط البرامكة لتكتمل إلا بالتســلل إلى مفاصل الدولة، ومن ثم اختطافها بالاقتراب من الخليفة وأبنائه، والالتصاق بالمرشــح للخلافة فيما بعد، ليصيحوا عيونه وأذنيه ويديه، حتى إذا ما تمكنوا أقصوا العرب ووسّعوا نفوذ الفرس، وحوَّلوا الدولة إلى فارسية بعنوان عربي.

وبعد وفاة الخليفة أبي جعفر المنصور؛ اتســع نفوذ البرامكة وازداد الاعتماد عليهم، ففي عــام (161هـ) أمر المهدي بأن يتولى يحيــى بن خالد أمور ابنه هارون بدلاً عن وزيره أبان بن صدقة، فكانــت فرصة لامــتلاك عاطفــة الأمير الصغير وعقله لا ســيما أنه ارتــبط معهــم بأخوة الرضاعة، والأهم من ذلــك الإشراف على إعــداده لمنصب الخلافة مستقبلاً؛ ضمانًا لاستمرار نفوذهم وسيطرتهم.

المراجع:

1) أحمد أمين، هارون الرشيد (القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2014).

2) صالح رمضان، "النهج الشعوبي لدى البرامكة"، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، ع.4 (2010).

3) قويدر بشار، دور أسرة البرامكة في تاريخ الدولة العباسية (الجزائر: معهد التاريخ، 1985م).

4) علي العمرو، أثر الفرس السياســي في العصر العباسي الأول (القاهرة: مطبعة الدجوي، 1979).

5) محمد برانق، البرامكة في ظلال الخلفاء (القاهرة: دار المعارف، د.ت).